

مجلة الأفاق

مجلة عربية مُحَكَّمة

تصدر عن القسم العربي بجامعة ولاية بوتشي-غَطُو
المجلد الأول، العدد الأول، ديسمبر ٢٠١٥م



Al-Āfaq

Refereed Arabic Journal

Published by the Department of Arabic,
Bauchi State University, Gadau

VOLUME 1, NO. 1, DEC. 2015

15/16/16
Abdullah Rashid
Muyaddam

مجلة الآفاق

مجلة عربية محكمة

تصدر عن القسم العربي بجامعة ولاية بوتشي غطو، نيجيريا
المجلد الأول، العدد الأول، ربيع الأول ١٤٣٧هـ / ديسمبر 2015م



AL-ĀFAQ

Refereed Arabic Journal

Published by the Department of Arabic,
Bauchi State University, Gadau

Vol. 1, No. 1, Dec. 2015

ISSN: 5041-1999

أهل النصفي في رثاء ابن الرومي وأدم الإلوري لابنيهما

د/ عيسى أليبي أبوبكر

جامعة إلورن، إلورن

و

د/ عبد الرشيد محمود مقدم

جامعة إلورن، إلورن

abdurrasheedmahmoudmukadam@yahoo.com

يعدّ فنّ الرثاء من الأغراض الشعرية التقليدية التي تناولها الشعراء العرب وغيرهم في مختلف
عصرهم التي سجّلت للتعبير عما يجيش في خلجات الصدور. والرثاء يعقد للكشف عن تأسفات،
وعن تألمات نجحت من فقد حبّ أو أليف له مكان خاصّ في القلب بين الأحياء؛ ومن هنا،
قد الرثاء طريقه إلى تأبين ذلك الفقيد ووصف مكانته في المحيط الذي عاش فيه؛ إذ يعدّ من بين
أغراض الثلاثة (المدح، والغزل، والرثاء) التي تولّدت من الغرض الأصيل الذي هو الوصف، وهذه
أغراض الثلاثة تتحد في الكيفية وتختلف في الحالالية؛ ذلك أن المدح عبارة عن ذكر محاسن الإنسان
عاقبه في حياته، والرثاء ذكر ما تحلّى به الميت من محاسن ومناقب.
فتركز هذه الدراسة على رثاء شاعرين أخذ صدق العاطفة في رثائهما كلّ مأخذ، ولم يمنع
الحزن والكآبة قلمييهما من الاهتزاز لتسجيل ما خالط قلبهما من مصيبة حلّت بهما بفقد قرّبي عينييهما
وذهبت إلى جريان دموعهما؛ فأولهما يتمثّل في شخصيّة ابن الرومي الذي اعتبر في دراسة حياته - كما
سبأني - محطة المصائب، وقد أصيب بفقد ابنه (محمد) الذي يعدّ وسط أبنائه الثلاثة وهو في ريعان
العمر، والآخر آدم عبد الله الإلوري الذي توفّيت باكورة حياته (خديجة) وهي في ربيع العمر وحدثت
السن.

والناظر في قصيدتيهما في الرثاء يشاطر الشاعرين الحزن والألم لصدقهما وامتلائيتهما بالعاطفة
الجياشة التي تغعم صدر القارئ أسى ولوعة، وتعمر قلب المتأمل حزناً وتلهفاً.

وتصبو هذه المقالة إلى دراسة التفاعل النصي في القصيدتين من حيث المعنى والأسلوب التي تشكّل وجوه التشابه بين القصيدتين حتى تعدّ الثانية من أصداء الأولى في ويكون ذلك بعد ذكر مناسبتهما، وعرض القصيدتين مع الوقوف على ترجمة بسيطة عن الشا ويأتي كل ذلك على حسب الترتيب الآتي:-

- ابن الرومي وداليته في رثاء ابنه محمد.
- مناسبة القصيدة والجو الذي قيلت فيه
- الإلوري ونونيته في رثاء بنته خديجة.
- مناسبة القصيدة والجو الذي قيلت فيه.
- التفاعل النصي في القصيدتين
- الخاتمة.

ابن الرومي وداليته في رثاء ابنه محمد

- التعريف بابن الرومي

هو أبو الحسين عليّ بن العباس بن جريح من موالي العباسيين، ويكنّى بابن الرومي نسبةً والده الذي كان رومي الأصل، وأمه من أصل فارسي؛ وهي امرأة تقية صالحة رحيمة⁽¹⁾.
وُلد ابن الرومي بالعقبة في بغداد، وأخذ العلم عن محمد بن حبيب، وعكف على الشعر من سن مبكرة ونبع فيه حتى يعدّ من أكبر الشعراء العباسيين، وتنوّعت أشعاره بين الملهج والمهجع والفخر والرثاء وتتميّز بصدق الإحساس حيث يبتعد في أشعاره عن المراءاة والتلفيق⁽²⁾، وصفه بن خلكان بأنه "الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على النادرة فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره يبقى فيه بقية"⁽³⁾ وكان حاد المزاج، معتل الطبع، خفيف الأعصاب، حادّ الحسّ، خريف اللسان، بغضا إلى الناس سيئ الحظّ كما قال عنه عميد الأدب العربي طه حسين ما نصّه "نحن نعلم أنه سيئ الحظ في حياته ولم يكن محبوبا إلى الناس، وإنما كان مبغضا إليهم، وكان محسدا أيضا، ولم يكن أمره مقصورا على سوء حظّه، بل ربّما كان سوء طبيعته..."

شهدت حياته ضرباً من المآسي والكوارث والنكبات التي تركت آثاراً كبيرة في قصائده، والتي عليه ولم تمنحه فرصة التفاوض؛ حيث إنه بعد فقد والده توفيت والدته ثم أخوه الأكبر وخالته، عنه من إسرافه وهواه جزء كبير من الأملاك التي ورثها عن والده، وتعرض الجزء الباقي للكوارث احترقت ضيعته، وغصبت داره، وأتى الجراد على زرعه، وجاء الموت مختطفاً منه أولاده الثلاثة فانوأت أمهم؛ فهذه الأحداث كلها شكلت طبيعته وأخلاقه، فقد مال إلى التشاؤم والانغلاق⁽⁴⁾، تمت حياته مضطربة، وعاش غريب الأطوار، خاضعاً للوهم والخوف، يتوقع السوء دائماً، فقام بالسخرية منه والابتعاد عنه واضطهاده، فأملت له هذه الحالة بالانتقام على مجتمعه، فهجا كل من وكل شيء يضايقه أو يسيء إليه، وجاءت حكمته نتيجة منطقية لمسيرة حياته فقال:

عدوك من صديقك مستفاداً ** فلا تستكثر من الصحاب

فإن الساء أكثر مما تراه ** يحول من الطعام أو الشراب

إذا انقلب الصديق غداً عدواً ** مبيتاً والأمور إلى انقلاب⁽⁵⁾.

توفي ابن الرومي مسموماً ودفن ببغداد عام 283 الهجري، الموافق 896 الميلادي، ويقول عن سبب موته: "إن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سلمان بن وهب وزير الإمام، كان يخاف من هجوه وقلبات لسانه بالفحش، فلدس عليه ابن فراش، فأطعمه حلوى مسمومة مجلسه، فلما أكلها أحسن بالسم، فقال له الوزير: إلى أين تذهب؟ فقال: إلى الموضع الذي إليه، فقال له: سلم على والدي، فقال له: ما طريقي إلى النار"⁽⁶⁾.

نص دالته⁽⁷⁾ في رثاء ابنه الأوسط محمد

بَكَوْكُمْما يَشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُجْدِي	فَجُوداً فَقَدْ أَوْذَى نَظِيرُكُمْما عِنْدِي
بُئِيَ الَّذِي أَهْدَيْتُهُ كَفَّايَ لِلشَّرِّ	فَبَا عِزَّةَ الْمُهْدَى وَبَا حَسْرَةَ الْمُهْدِي
أَلَا قَاتِلَ اللَّهِ الْمَنَاسِيَا وَزَمِيَّتَهَا	مِنْ الْقَسُومِ خَبَاتِ الْقُلُوبِ عَلَى عَمْدٍ
تَوَسَّيَ جِوَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيَّتِي	فَلَيْلَهُ كَيْفَ اخْتَارَ وَابْطَلَةَ الْعَقْدِ
عَلَى جِوْنِ ثَمَثِ الْخَيْرِ مِنْ لَمَحَاتِهِ	وَأَتَسْتُ مِنْ أَفْعَالِهِ آيَةَ الرُّشْدِ
طَوَّاهُ الرَّذَى عَنِي فَصَاحِبِي مَزَاوَةَ	بَعِيداً عَلَى قَرْبٍ قَرِيناً عَلَى بُعْدٍ
لَقَدْ أَتَحَزَّتْ فِيهِ الْمَنَاسِيَا وَعَيْدَهَا	وَأَخْلَقْتَ الْأَمَالَ مَا فِيهِ مِنْ وَعْدٍ

- لَقَدْ قَتَلَ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ لُبْنَةً
تَنْعَصُ قَبْلَ الرِّيِّ مَاءَ حَيَاتِهِ
10 أَلَحَّ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ
وَوَظَّلَ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ
فَيَا لَكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا
عَجَبْتُ لِغَلْبِي كَيْفَ لَمْ يَنْقَطِرْ لِي
بِوُدِّي أَنِّي كُنْتُ قَدْ مَدْتُ قَبْلَهُ
15 وَلَكِنْ رَبِّي شَاءَ غَيْرَ مَشِيقِي
وَمَا مَرَّيْنِي أَنْ يَغْنَمَهُ بِقَوَائِمِهِ
وَلَا يَغْنَمَهُ طَوْعًا وَلَكِنْ غَصْبَهُ
وَلِيَّ وَإِنْ مَتَّعْتَ بِإِبْنِي بَعْدَهُ
وَأَوْلَادُنَا مِثْلَ الْجَوَارِحِ أَيْمًا
20 لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهُ
هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهُ
لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ
تَكَلُّتُ سُرُورِي كُلَّهُ إِذْ تَكَلَّفْتُ
أَرْحَمَانَةَ الْعَيْنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
25 سَأَسْقِيكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ بِهِ
أَعْيُنِي جُودًا فَقَدْ جُدْتُ بِالْقَرَى
أَعْيُنِي إِنْ لَا تُسْعِدَانِي أَلْمَكُمَا
عَذْرَتُكُمَا لَوْ تُشْعِلَانِ عَنِ الْبَكََا
أَشْرَةً عَيْنِي لَوْ قَدَى الْحَيُّ مَيَّنَا
30 كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِنَظَرَةٍ
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ
- قَلَمَ يَنْسُ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضَمَّ فِي اللَّحْدِ
وَفُجِعَ مِنْهُ بِالْعُدُوبَةِ وَالْبَرْدِ
إِلَى صُفْرَةِ السَّحَابِ عَنْ حُمْرَةِ السَّوْدِ
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي الْفَضِيْبُ مِنَ الرُّبْدِ
تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلَا عَقْدِ
وَلَسَوْ أَنَّهُ أَقْسَى مِنْ الْحَجَرِ الصَّلْدِ
وَأَنَّ الْمَنَابِيا دُونَهُ صَمَدَتْ صَمَدِي
وَلِلرَّبِّ إِمْنَاءُ الْمَشِيقَةِ لَا الْعَبْدِ
وَلَسَوْ أَنَّهُ التَّخْلِيدُ فِي حَسَنَةِ السَّخْلِدِ
وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ الْحَوَادِثِ مِنْ مُغْدِي
لَأَذْكُرُهُ مَا خَنَى النَّيْبُ فِي تَخْدِ
فَقَدَرْنَاكَ كَانَ الْفَاجِعُ الْبَيِّنُ الْقُفْدِ
مَكَانَ أَحْيَاهِ فِي حُرُوعٍ وَلَا حَلْدِ
أَمِ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَغْدِي
وَأَصْبَحْتُ فِي لَسَدَاتٍ عَيْنِي أَخَا زُهْدِ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلِ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
وَأِنْ كَانَتْ الشَّقِيَا مِنَ الدَّمْعِ لَا تُجْدِي
بِأَنْفَسٍ مِمَّا تُسْأَلَانِ مِنَ الرَّقْدِ
وَإِنْ تُسْعِدَانِي الْيَوْمَ تَسْتَوِجَانِ خَمْدِي
بِنَوْمٍ وَمَا نَوْمُ الشَّجِيِّ أَحْيَى الْجَهْدِ
فَدَيْتُكَ بِالْحَوَائِجِ أَوَّلَ مَنْ يَفْدِي
وَلَا قُبْلَةَ أَخْلَى مَدَامًا مِنَ الشَّهْدِ
وَلَا بَعْدَهُ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدِ

إِلَافَ لِمَا أُبْذِيَ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
خَمَدُ مَا شَيْءٌ تُؤْهِمُ سَلَوَةً
أَرَى أَحْسَنَكَ الْبَاقِيَيْنِ قَدِيمًا
35 إِذَا لَعِينًا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَدَعَا
فَمَا فِيهِمَا لِي سَلَوَةٌ بَلْ خَزَاةٌ
وَأَنْتَ وَإِنْ أُفْرِدْتَ فِي دَارٍ وَخَمَةِ
أَوْدٌ إِذَا مَا الْمَوْتُ أَوْفَدَ مَعَشَرًا
وَمَنْ كَانَ يَسْتَهْدِي حَبِيبًا هَدِيَّةً
40 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي تَحِيَّةً
وَأَلِيَّ لَأُخْفِي مِنْهُ أَصْعَافَ مَا أُبْذِيَ؟
لِقَلْبِي إِلَّا رَاةً قَلْبِي مِنَ الْوُجْدِ
يَكُونَانِ لِلْأَخْرَافِ أَوْزَى مِنَ الرُّنْدِ
فَوَإِذَا يَمُوتُ النَّارُ عَنْ غَيْرِ مَا قُصِدِ
يَهْبِجَانِيَا دُونِي وَأَشْفَى بِهَا وَحْدِي
فَوَإِذَا بَدَارَ الْأُنْسِ فِي وَخْشَةِ الْفُرْدِ
إِلَى عَشْكَرِ الْأُمُوسِ أَلِيَّ مِنَ الْوُفْدِ
فَقَطِّفْ خَيَالِي مِنْكَ فِي الدُّؤْمِ اسْتَهْدِي
وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالسَّرْعِدِ

أسبب القصيدة والحوادث الذي قيلت فيه

كان لابن الرومي ثلاثة أولاد ذكور توسطهم محمد الذي كان نابهاً ذكياً⁽⁸⁾، فسقط أليف
لن لأزمة دموية كان يعانيها في شربانه فظن بذلك نحيف البدن متغير البشرة إلى أن غالت عليه يد
المرض وهو في طلائع العمر وحداثة السن، فنار إثر هذه الحادثة حزن والده ابن الرومي، فصاغ رثاءه في
الأسى والكآبة والتفجع على فقد قرة عينه وريحانته.

ورثي ونوئته في رثاء بنته خديجة

عرف بأدم الإلوري:

ولد آدم عبدالله الإلوري عام ١٩١٧م من أب يوربوي يسمى عبد الباقي بن حبيب الله بن
الله، وينتمي نسبه إلى أُوَيُوتِي، حيث نزح جدّه الأعلى (عبدالله) إلى الورن مع رفقة آتينا⁽⁹⁾، ونزل
أول وهلة في إدي أبي، ثم -أخيراً- تحول إلى أومدا بالجهة الغربية من مدينة الورن. وكان والده عبد
الله كثير التجوال لمهمة تجارية⁽¹⁰⁾، فألقى عصا ترحاله بقرية واسا-مسقط رأس آدم- في الداهومي
بنيوية بنين-حاليا-؛ حيث تزوج بأمة عاتشة بنت الملك، ولبنوا بها إلى أن عاد جميع الأسرة إلى
الورن.

ثم تولى والده إمامة الناس في الصلاة بمسجد أومدا، وكان يعلم الصبيان القرآن الكريم، وعنه
لدى الإلوري مبادئ العلوم العربية والإسلامية، قبل أن يسوقه الحظ إلى الشيخ صالح أُنِيَسِينِيُو؛ فأخذ

- 5 فَالْسَهْمُ رُزَّةٌ وَالْمُؤْمُومُ سُمُومُهُ
تِلْكَ الرِّزَّةُ فِي خَدِيدِجَةٍ ابْنَتِي
عَاشَتْ مَعِيَ سَبْعًا مِنَ السَّنَوَاتِ فِي
فِي إِذَا بَيْنَتِي قَدْ تَوَسَّدَتِ النَّوَى
قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّي عِنْدَ الْبَلَا
10 حَتَّى بُلِيتُ بِمَوْتِ بِنْتِي هَذِهِ
فَوَجَدْتُ صَبْرِي لَمْ يَكُنْ ثَبَاتًا عَلَى
فَعَبَّرْتُ دَمْعًا سَاحِجًا مِنْ تَحْجَرِي
فَهُنَاكَ تَأَذُّتُ الْفُؤَادَ مُنَاجِيًا
يَا عَيْنُ لَا تَبْكِي عَلَى حُكْمِ الْقَضَا
15 النَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي وَبَلَاتِهِمْ
لَمْ أَنْتَظِرْ فِي الدَّهْرِ بَعْدَ مَسَرَّةٍ
فَالْعَيْشُ هَمٌّ وَالْمَوْتُ بِمَرَصِدٍ
وَاللَّهُ مُطْلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ لَا
يَا رَاحِمَ النَّعَابِ فِي أَعْشَاشِهِ
وَالصَّبْرُ تَرَيَاقٌ عَلَى الْأَخْزَانِ
كَانَتْ مَعِيَ كَالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ
رَهْرَاهًا كَشَقَائِقِ التَّغْمَانِ
وَالْجِسْمُ مِنْهَا مُدٌّ لِلدَّيْدَانِ
ثَبَّتَ الْجَنَانُ وَصَاحِبُ الْإِيمَانِ
فَتَغَطَّلَ الْإِحْسَاسُ مِنْ وَجْدَانِي
هَذَا الْمَصَابِ وَأَزْدَادَ فِي النُّقْصَانِ
وَعَلَا بُكَائِي وَالْعَوِيلُ دَعَائِي
هَلْ فِي الْبُكَاءِ النَّفْعُ لِلثَّكْلَانِ؟
فَجَمِيعُنَا فِي قُبُصَةِ الرَّحْمَانِ
وَالْكُلُّ يَشْكُو مِنْ أَدَى الْأَرْزَانِ
إِلَّا عَلَى عَطْفٍ مِنَ الْخَنَانِ
وَجَمِيعُ أَعْمَالِي عَلَى الْمِيزَانِ
تَحَقَّى عَلَيْهِ كَوَامِلُ الْأَكْوَانِ
إِرْحَمْ بُكَائِي يَا عَظِيمَ الشَّانِ

قاسية القصيدة والحو الذي قيلت فيه

تسجل هذه القصيدة الفجيعة التي هزت وجدان آدم الإلوري وهي موت ابنته خديجة؛ حيث كانت رهينة الفراش لمرض أصابها، فتداعى المؤسسون إلى علاجه؛ ولكن قد سبق القدر المحتوم فأضحت مريضة الموت وفقيدة الأسرة في عمر لم يجاوز سبعة أعوام. فحاشت-إثر هذه الفجيعة-عاطفة الإلوري رثاها بقصيدته النونية.

الفاعل النصي في القصيدتين

من المعلوم في النقد الأدبي دراسة وجوه التشابه بين الأعمال الأدبية من حيث الألفاظ والمعاني والأساليب والأفكار؛ وهذا التشابه ليس من نوع الانتحال والسرقة؛ إنما هو من الاتحاد الحاصل في صدقية العاطفة التي تفرض نفسها على الشاعر أن يصوغ ألفاظه في قالب يتلاءم مع دلالة معانيها،

ويقدر على إيصال أفكارها إلى المتلقى بأسلوب تعكس من خلاله تجربة شعرية سابقة في العمل الأدبي الراهن، ويأتي من قبيل هذا المعنى التناص الذي يفهم منه القارئ مدى التأثير والتأثر بين الشعراء في تجربة واحدة.

والناظر إلى القصيدتين المتقدمتين يرى مدى التأثير والتأثر بينهما من حيث المعاني والأفكار والأساليب التي تثبت أن كلا منهما تصدر عن مشكاة عاطفية واحدة يحكمها حنو الأبوة، وإظهار ما يكابد النفس من الحزن والأسى والتفجع إثر فقد فلذة الكبد. ويتجلى التفاعل النصي بين هاتين القصيدتين في الحثيات التالية:-

1- التفاعل في الأسلوب

(أ) التشخيص

استهلّ الشاعران القصيدتين بأسلوب التشخيص الذي صوّر به الشاعر الأول ابن الرومي عينيه بامرأتين يطالبهما أن تجودا بالدموع على فقد نظيرهما الذي احتلّ في نفسه -كشأئهما- مكان الاحترام والشرف؛ فهذا البكاء منهما قد يشفي نفسه المتفتّنة، ويخفّف فيه ألم المصيبة، مع عدم جدوى إسالة الدموع في إعادة روح الفقيده، وعدم قدرتها على إنقاذه مما يعانيه من الحزن والتلهّف من فقد ابنه الذي كان قطعة من كبده، وواسطة عقده. وكان الشاعر الثاني الإلوي يصوّر الدهر في مطلع قصيدته إنساناً صياداً ماهراً⁽¹⁵⁾ لا تطيش سهامه، وقد صوّجها نحو قبّه فأصاب هدفه باختطاف ابنته البكر فعطلّ حركته ونشاطه وهو بذلك يشبّه السمّ الذي يجري في الشريان فتشلّ الأعضاء.

(ب) التشبيه

تعطي القصيدتان صوراً تمثيلية تعمل في تقريب المعنى الحافل بالإبداع الفني، فابن الرومي مثلاً يرى بشرة ابنه محمد في حالة الاحتضار وقد غيّر المرض لون جسمه إلى اصفرار كالزعفران الذابل بعد أن كان وردة جميلة حمراء. كما مثل ابن الرومي تساقط نفس ابنه عند الاحتضار بتساقط درّ منفصل من نظام العقد. وكذلك تشبيهه الأولاد لدى الآباء بالجوارح التي إذا افتقدت جارحة فلا تسدّ مكانها جارحة أخرى.

ونجد الإلوري في قصيدته يشبه السهم بالحية التي كان لدغها مصيبة، غير أن الشاعر لم يذكرها سبيل التشبيه البليغ، ويشبه الهموم الحاصلة من السهم بسموم الحية، ويشبه تحمّل الأذى والصبر بالترياق الذي يخفّف الألم والضّر. ويشبه بنته خديجة بالروح والريحان؛ وذلك لدماثة خلقها ومومة خلقها وحلاوة بشاشتها، كما يشبهها بشقائق النعمان في نضارتها ورونقها.

2- التفاعل في المعنى

ونجد بين معاني هاتين القصيدتين تفاعلاً قوياً يعقد علاقة تأثرية بينهما حتّى يتأمل القارئ أن أية كانت تستقي بعض معانيها من الأولى؛ ومن هذه المعاني ما يأتي:-

(أ) علوّ مكانة الابن في نفس الوالد

وهذا يظهر جلياً لدى الشاعرين أن لابنهما مكانة عالية عندهما، ونفهم هذا من خلال الألفاظ المستعارة لهما؛ حيث كان ابن الرومي قد كفى ابنه الفقيّد بواسطة العقد لشهرته ولمكانه الخاص في قلب والده وهو بين الأخوين كالقلادة. أما الإلوري فقد اعتبر موت ابنته كوقعة سنان الرمح في المهجة، وهذا دليل على شدّة حبّه لها لكونها أول مولود له.

(ب) عدم الاستطاعة على تحمّل المصيبة

إن الشاعرين في قصيدتيهما يبديان الضعف البشريّ وعدم القدرة على تحمّل المصيبة، ولا يعني هذا نقصاً في النزعة الإيمانية التي نلمس لها آثاراً في شعريهما، فإنهما لم يستطيعا كبت لوعتهما على فقد ابنيهما، بل إنهما سجّلا في ثنايا هاتين القصيدتين مدى ما كان يغمرهما من الحزن والكآبة والأسى من فقد ابنيهما؛ فابن الرومي كان يوازن ضمناً بين قيمة ابنه الفقيّد والثواب الذي قد يحصل عليه جراء هذه الحادثة العمياء، ففضّل بقاء ابنه معه في قيد الحياة على الثواب المحصول عليه في الآخرة، ولو أنه يجازى بجنة الخلد! بينما كان أدم الإلوري يعبر عن نفسه، أنه قبل الحادثة يحسب نفسه ثبّت الجنان قويّ الإيمان عند نزول البلاء، وأنه قادر على التحمّل؛ غير أنه حين وفاة ابنته تبيّن له أنه على عكس حساباته وظنّه؛ حيث لم يقدر على تحمّل هذه المصيبة، ولم يهدأ لها قلبه، بل قام العويل والبكاء مقام هذا الثبات والتحمّل.

3- التفاعل في الفكرة

(أ) العرض السريع لحالة الفقيدين عند الاحتضار

إن الفجأة التي تسير ممت الإنسان تخلق في نفس الثكلان أو الثكلى بعض التخيلات والذكريات التي من شأنها أن تعرض بعد موت الحبيب أو الحبيبة؛ ولا تخلو هذه الذكريات والتخيلات عن الأقوال التي يقولها ذوو المتوفى، الذين يجدون في أنفسهم الحيرة والارتباك بفجأة الفجعة التي ألمت بهم، فتفرض عليهم أن يعيدوا بعض الأحداث أو الوقائع التي حدثت قبل موتهم أو التصرفات التي قام بها قبل موته؛ وعلى هذا النمط سار الشعاران في رثائهما بذكر ما حدث لانيهما قبل الوفاة، فنجد ابن الرومي يعبر عما عاناه ابنه من النزف الشديد، الذي أحال لولاه جسمه من الحمرة إلى الصفرة، بينما نجد الإلوري يعبر في هذا الصدد عن المحاولات اليائسة من الأطباء والأصدقاء الذين قدموا لابنته خديجة أنواعاً من الأدوية والعقاقير لإعادة لها إلى الحياة والحياة.

(ب) الحنين الأبوي

إن الحبيين أو المتألفين اللذين حصل الفراق بينهما سواء كان مؤقتاً أو أبدياً يحزن أحدهما إلى الآخر، وهما يذكران ما كان بينهما من علاقة الحب والتألف، ونرى هذا المظهر في القصيدتين حيث كان بن الرومي يحزن إلى ابنه (محمد) كما نقرأ ذلك من خلال البيت التاسع والعشرين (29) إلى البيت السابع والثلاثين (37) التي فيها التعبير عن مدى سروره واستمتاعه برؤية ابنه وضمه إلى صدره وتقبيله إذ كان حياً، والنظر إليه وهو يشارك أخويه اللعب واللهو؛ المنظر الجميل الذي يدخل الارتياح في قلب ابن الرومي وفي قلب كل والد ووالدة، فقد فارق هذا العقد الفريد الحياة وبقي بعده الأخوان اللذان يذكر بقاءهما الوالد ابنه الفقيد المحبوب، ولا تغنيه حياتهما من الحنين إليه حيناً لآخر، وهذه المعاني كلها قد جمعها آدم الإلوري في بيت واحد؛ وذلك عند وصفه الأعوام التي عاشها وكان في شبابه وربيعان عمره، وكانت لجملها تشبه الزهرات البهية، وهي الأعوام نفسها التي عاشت مع فيها ابنته المتوفاة وكانت حينذاك جميلة وناعمة كشقائق النعمان.

تسليّة النفس على المصائب

إن تسليّة النفس بعد مصاب الشاعرين في ابنيهما لظاهرة في القصيدتين؛ وذلك لعلهما أن اردموا العين ودوام البكاء على هذه الفجعة لا يرجعان روح الفقيدين، فعلى النفس أن تعود إلى لها، وتستسلم لقضاء ربحها، وتتهيا للتسليّة والصبر على بلائها؛ وعلى هذا المعنى يقوم البيت الثالث إلى الخامس عشر من قصيدة أدم الإلوري (13-15)؛ حيث كان يراجع نفسه، ويناديها أن من مداومة الحزن، كما يطلب من العين أن تكفكف الدمع، لأنه لا مفر من قضاء الله وإرادته، إنسان في الدنيا رهين المحنة والبلاء. ولكن ابن الرومي أوجز في هذا المعنى كلّ إيجاز، وضمن في البيت التاسع والثلاثين (39) بقوله: إذا كان بعض الناس يستهدون من غيرهم هدية ثمينة لهم، فإنه يستهدي من ابنه الراحل أن يترأى له في المنام إذا صعبت عليه رؤيته الحقيقية في الدنيا، ويتمنى من ابنه الفقيد أن يكون طيفا يزوره في كلّ ليل.

اليأس بعد الفجعة

إن المصائب يسايرها في الوهلة الأولى القنوط واليأس والنظر إلى الحياة بعين التشاؤم والكراهية؛ فكأنها لا تطيب بعد فراق أهل أو موت صديق، وكأن الأرض تضيق على من فقد حبيبها بما فيها، ويكاد يتمنى أن يقرب له الأجل ويعجل له الموت، وقد ثبت هذا المعنى في رؤية الشاعرين إلى كبير؛ فهذا ابن الرومي يود بعد موت ابنه محمد ألا يطول بينهما الأمد، وأن يكون في ضمن الوفد لوفاة ابنه إلى عسكر الأموات، حيث يقول:

أودُّ إذا ما الموتُ أوفدَ مَعَشَرًا إلى عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ أَنِّي مِنَ الْوَفْدِ

بينما نجد أدم الإلوري يستيأس من حصول مسرة بعد وفاة ابنته خديجة إلا إذا تداركه عطف الله الختان، الذي في شأنه أن يعقب الأحران بالمسرات، ويردف العسر باليسر، يقول:

لَمْ أَنْتَظِرْ فِي الدَّهْرِ بَعْدُ مَسْرَةً إِلَّا عَلَى غَطِّفٍ مِنَ الْخَتَانِ

الطابع الإسلامي

والناظر إلى القصيدتين يرى أن الشاعرين -جزء هاتين الفجعتين- لم تغب فيهما روح الإسلام من كل الأمور إلى الله الذي يفعل ما يشاء كيف يشاء؛ حيث لم تزعزع المصائب والأحران ما الوثيق بالله، وأن تخرجهما من حظيرة الدين رغم هول ما كابدها من حرقة الأكباد وحرارة

الأجساد؛ فابن الرومي في قصيدته عمل بظاهرة الآية التي تقول: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ طَرِيقاً مُبِيناً" (الأحزاب: 36)؛ وذلك لاعترافه أن مشيئة الله نافذة في جميع الأمور والتصرفات، وله إمضاء المشيئة لا العبد بقوله:

وَلَكِنَّ رَبِّي شَاءَ غَيْرَ مَشِيئَتِي وَلِلرَّبِّ إِمْضَاءُ الْمَشِيئَةِ لَا الْعَبْدِ

كما كان آدم الإلوري يؤمن إيماناً وثيقاً بقوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ فِي السَّمَاءِ" (آل عمران: 5) وقوله "رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْلِي وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ" (إبراهيم: 38) يقول:

وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى الْأَسْرَارِ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ كَوَامِلُ الْأَكْوَانِ

ولم يكتف الشاعران بإبداء هذه النزعة الإيمانية فحسب، بل ختم كل منهما قصيدته بالله حسب التعاليم الإسلامية السمحاء.

الخاتمة

بعد هذه الجولة في مضمار هاتين القصيدتين يرى القارئ أن بينهما تفاعلاً نصياً من حيث المعنى والأسلوب والفكرة؛ ويكمن هذا التفاعل في الارتباط القوي بينهما في التعبير عما وقع بهما من حرقه الأكباد والالتياح الحاصل من فقد ابنيهما في سن مبكرة؛ ومع ما بين الشعارين من تفاوت في مستوى الشاعرية فقد وفق كل منهما على اختيار الألفاظ، وقوة المعنى، وصدق العاطفة، وبراعة الأسلوب، وجودة الفكرة التي خلعت على القصصيين حركة ونشاطاً لتجسيد المعنى وإلباسه ثوب الحقيقة حتى تتجلى الأمور وتظهر الحقائق التي تجعل القارئ أن يشاطرها الحزن والعاطفة من خلال الإيجاءات اللفظية الموقفة.

الهوامش

1. ويكيبيديا-الموسوعة الحرة- في شخصية ابن الرومي، تاريخ الاطلاع يوم الثلاثاء 2015/7/28.
2. المرجع نفسه
3. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر العربية، ط1، ج1

1975م. ص116

4. المرجع نفسه
5. المرجع نفسه
6. المرجع نفسه
7. ديوان ابن الرومي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002م، 1423هـ ج3، ص115-117
8. ابن حلكان، المرجع السابق والصفحة ذاتها.
9. الإلوري، آدم عبد الله (الشيخ)، من هنا نشأت وهكذا تعلّمت حتى تخرّجت، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيني، لاغوس، 1991م. ص5
10. المرجع نفسه، ص4
11. أغاكا، عبد الباقي شعيب (الأستاذ الدكتور)، الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري، النهار للطبع والنشر والتوزيع، ط1، 2004م. ص106
12. المرجع نفسه والصفحة نفسها
13. المرجع نفسه والصفحة نفسها
14. لقطات الإلوري؛ عبارة عن ديوان فيه بعض أشعار الشيخ آدم عبد الله الإلوري جمعها هيئة التدريس بمركز التعليم العربي الإسلامي أغيني، مطبعة الثقافة الإسلامية، أغيني، لاغوس، 1991م. ص8
15. أغاكا، المرجع السابق، ص235

